قراءة في كتاب المدارس اللسانية
للدكتور أحمد عزوز

د. إبراهيم عطية(*)

مقدّمة

تطورت الدراسات اللسانية في العصر الحديث، حتى أصبحت معظم مجالات الفكر الإنساني تخضع لمبادئها، وتتبلور وفق مناهجها، وإذا بنا نجد علوم اللغة والنفس والاجتماع والتاريخ وغيرها تكتسب إطارًا علميًّا، وحلّةً جديدة، وتتداخل فيما بينها لتفرز لنا مجالات معرفية جديدة، وفروعًا من التخصصات العلمية لم تكن معهودة.

وفي هذا الكتاب استطاع المؤلف الفاضل أن يؤرِّخ للدراسات اللسانية القديمة والحديثة، وأن يعرض مادة كتابه مفهومة ميسرة، شاملة بإيجاز وتكثيف لتاريخ اللسانيات ومدارسها وأعلامها.

مضمون الكتاب:

يتألف الكتاب من مدخل وعشرة فصول وخاتمة.

(*) باحث في علم اللغة من العراق.

عرضَ في المدخل أهمية اللسانيات ووظيفتها وموقف الباحثين منها. وفيه رأى أن النموذج اللساني فرض وجودَه على أغلب ميادين الفكر الإنساني، فظهرت تلك الميادين في مظهر جديد، بعد أن أُعيد بناؤُها وترتيب مفاهيمها وفق المنهج اللساني. ووفق هذا التصور يمكن القول بأن مجال اللسانيات واسع جدًّا، وإمكاناته غير محدودة، مع أنها إمكانات منهجية في الأصل، وليست إمكانات معرفية.

وفي المدخل ذكر بعض الأسباب التي تقف وراء النفور أحيانًا من اللسانيات وأهمها:

أ- حداثة هذا العلم، وما يقابلها من خوف فطري من كل جديد.

ب- الأسلوب غير المحبب في عرض اللسانيات، عند كثير من الباحثين، عن طريق الرسوم والرموز والأرقام.

ج- عدم الاطمئنان إلى ما تنتجه الأمم الأخرى.

ويرى الباحث في هذا المدخل أن اللسانيات لا تتعارض والتراث اللغوي العربي، بل يمكن أن يكون لها وظيفة هامة حين تدخل مجاله، تتمثل في تنظيم أبوابه وإلغاء التداخل بينها، واستكمال نظرياته ومبادئه، وإعادة عرضه وفق منهج جديد. وبذلك تكون العلاقة بين اللسانيات الحديثة والتراث اللغوي العربي علاقةَ أُلفة واستئناس، لا علاقة تنافر ورفض.

ثم عرض المؤلف في الفصول الأربعة الأولى المدارس اللسانية القديمة وهي: الهندية واليونانية والرومانية والعربية.

وعرض في الفصول الخمسة التالية المدارسَ الحديثة وهي: مدرسة دي سوسير، والمدرسة الوظيفية، ثم النَّسَقِية، فالسياقية، فالتحويلية التوليدية.

وخصَّص الفصل العاشر للسانيات التداولية ومنطلقاتها الفكرية والواقعية.

ونظرًا لأهمية هذه المدارس رأيت أن أعرض تعريفًا موجزًا بها، يَسُدُّ حاجة غير المختصين، ويكون حافزًا أمام المختصين للاطلاع على مضمون الكتاب.

المدارس القديمة

وهي أربع: الهندية واليونانية والرومانية والعربية. وقد تجلَّى إسهام هذه المدارس في وضع القواعد التي تُرشد إلى معرفة الاستعمال الصحيح للغة، ولم تكن غايتها دراسة اللغة في حد ذاتها باعتبارها ظاهرة إنسانية، كما هو الشأن في المدارس الحديثة.

١ - المدرسة الهندية:

تتمثل الملامح الفكرية لهذه المدرسة في ثلاثة مرتكزات هي: اللغة السنسكريتية، والفيدا، والعالم اللغوي بانيني.

فاللغة السنسكريتية: مصطلح يُطلق على اللسان الهندي القديم، كما كان ينطقه ويكتبه الكهنة. ولهذه اللغة تاريخ قديم يعود إلى أكثر من (١٥٠٠ ق.م).

والفيدا (veda): اسم أُطلق على أربعة كتب مقدسة خاصة بالعقيدة البراهمية، وتلك الكتب مع ما يرتبط بها من النصوص تُسمَّى الأدب الفيدي.

وبانيني (panini): إمام نحاة الهنود، عاش في القرن الرابع قبل الميلاد، وهو الذي صاغ قواعد اللغة السنسكريتية على درجة كبيرة من الدقة.

وأهم ما أُثر عن هذه المدرسة وصف الأصوات ومخارجها وخصائصها وما يطرأ عليها من تغيُّر، إضافة إلى وصف دقيق لأعضاء النطق. وكان غرض علماء هذه المدرسة خدمة اللغة المقدسة والتراث الديني. وقد تأثرت الدراسات الأوربية الحديثة بآراء هذه المدرسة ومنهجها عن طريق الترجمة.

٢- المدرسة اليونانية:

يتجلى التراث المأثور عن هذه المدرسة فيما بذله علماء اليونان من جهود نحوية لخدمة لغتهم. ويُعدّ أفلاطون رائد الدراسات النحوية اليونانية، ومن بعده تلميذه أرسطو، إضافة إلى بعض الأعلام من أمثال ثراكس (thrax) تلميذ أرسطو.

ارتبطت الدراسات اللغوية اليونانية بالفلسفة، وأهم المباحث التي خاض فيها رواد هذه المدرسة: أنواع الجمل وتركيبها وأصناف البديع وأقسام الكلمات والأسلوب والأصوات. ولهذه المدرسة أثر واضح في كل المدارس اللسانية التي جاءت بعدها قديمًا وحديثًا، وخاصة المدرسة الرومانية.

٣- المدرسة الرومانية:

الرومان كانوا تلامذة الإغريق في كل مجالات الفكر، ويشمل ذلك الفكرَ اللغوي، إذ ترجموا إلى اللغة اللاتينية معظم ما كتبه اليونان. ولذلك وضعوا نحوَ اللغة اللاتينية على غرار النحو اليوناني، ووفق المناهج التي سار عليها اليونان.

ومن أشهر أعلام هذه المدرسة: شيشرون (ت ١٠٦ ق.م) الخطيب البليغ، وكونتيلين (ت٩٠ق.م) صاحب التآليف المطوَّلة في البلاغة والنحو والفن الأدبي، وفارون (ت٢٧ق.م) صاحب الرقم الأعلى في عدد المؤلفات بين الإغريق، التي

بلغت ٦٢٠ مؤلفًا في مجالات الفكر المتنوعة، وبريسيان (ت٥٦٠م) صاحب كتاب المقولات النحوية. وهناك أعلام آخرون ينتمون إلى هذه المدرسة.

يتميز النحو اللاتيني والنحو اليوناني بأنهما معياريان، أي إن قواعدهما موضوعة على اعتبار ما ينبغي أن يُقال، وليسا وصفيَّين يهتمان بما هو مستعمل.

أما مجالات النحو اللاتيني فقد توزعت على: الأصوات والصرف وعلاقات التركيب والدلالة.

٤- المدرسة العربية:

تتميز هذه المدرسة بغنى تراثها، وامتدادها إلى الزمن الحاضر. وقد ولدت هذه المدرسة بعد الإسلام لخدمة القرآن الكريم وفهم مقاصد التشريع، وهذا الغرض جعل علماءها يتناولون أيضًا الشعر والتراث الأدبي.

وتتصف المجالات اللسانية التي تناولتها هذه المدرسة بالتنوع والاتساع والتخصص والدقة والعمق. وأهم تلك المجالات: الأصوات والصرف والنحو والدلالة والبلاغة والنقد الأدبي والمعاجم.

المدارس الحديثة

نشأت هذه المدارس منذ القرن التاسع عشر، الذي سماه تشومسكي قرن العبقريات، حيث ازدهرت فيه الدراسات اللغوية التاريخية والمقارنة ازدهارًا مهَّد لظهور اللسانيات على أنها علم قائم بذاته، يُعنى بالظاهرة اللغوية، وفق منهج علمي واضح المعالم.

وقد مرت الدراسات اللسانيات في العصر الحديث في ثلاثة أطوار:

١- طور الاشتغال بالنحو وقواعده (Grammars)، كما كان شائعًا في المدارس القديمة.

٢- طور ظهور الفيلولوجيا (philology) وهي فقه اللغة التاريخي والمقارن، و(philology) مؤلفة من جذرين وتعني: حب الكلام والبحث فيه. والفيلولوجيا هي التي مهدت لظهور علم اللغة التاريخي أو اللسانيات التاريخية.

٣- طور التفريق بين فقه اللغة وعلم اللغة (اللسانيات)، وفيه تحدَّدت معالم علم اللغة المقارن، إضافة إلى الشروع في دراسة اللغة على أنها موضوع طبيعي.

وأهم الأعلام الذين عاصروا الأطوار السابقة: بوب (bopp) وأوجست فريدريكث بوت (August Friderick Pott) وماكس مولر (Max Muller) وشليجل (Shlegel) وشليشر (Schleicher) وجريم (Grimm) وراسك (Rask) وغيرهم.

والمدارس الحديثة في رأي المؤلف خمس هي:

١- مدرسة دي سوسير (١٨٥٧- ١٩١٣):

ظهرت أفكار ودراسات مهدت لظهور هذه المدرسة، وأهم الأعلام الذين مهدوا لظهورها: كورتناي (Courtenay) ووايتني (Whiteney) وبيرس (Peirce) ودور كايم (Durkheim).

ويعد دي سوسير أبا اللسانيات الحديثة، وقد قدم أفكاره وفلسفته بمحاضراته التي ألقاها بين عامي ١٩٠٦ و١٩١١، والتي جمعها بعد وفاته تلميذاه: سيشهاي (Sechehay) وبالي (Bally)، ونشراها عام ١٩١٦.

وفي آرائه ميَّز بين اللغة باعتبارها ظاهرة إنسانية، واللسان باعتباره لغة شعب ما، والكلام باعتباره جهد فردي، كما فرق بين خصائص اللغة المنطوقة واللغة المكتوبة، ودرس العلاقة بين الدال والمدلول أي: بين اللفظ وبين ما يدلّ عليه ذلك اللفظ، إضافة إلى أفكار أخرى جعلت من دي سوسير ومن اعتمد أفكاره مدرسة لسانية قائمة بذاتها.

٢- المدرسة الوظيفية أو مدرسة براغ الوظيفية:

يُنسب تأسيس هذه المدرسة، التي ظهرت في عام ١٩٢٦، إلى العالِم اللساني التشيكي ماثيسيوس (Mathesius)، وأهم أعلامها: ترنكا (Tranka) وهافرانك (Havranek) وفاشيك (Vachek) وهؤلاء تشيكيون، وتروبتسكوي (Troubetskoy) ورومان ياكبسون (Jacobson Roman) وهما من روسيا.

يهتم أتباع هذه المدرسة بتتبع الوظيفة التي يؤديها العنصر اللغوي، داخل التركيب، في صنع المعنى، ويسعون باعتمادهم لنظرية التواصل، إلى دراسة عناصر التواصل: المرسل، والمتلقي، والرسالة، وقناة الاتصال وهي التي تحمل الرسالة كالهواء وغيره، واللغة باعتبارها أداة الاتصال، والمرجع وهو المجال الذي تدور في فلكه الرسالة.

وقد وجد أتباع هذه المدرسة أن كل عنصر، من عناصر التواصل السابقة، يولِّد وظيفة لسانية خاصة، وحدَّدوا تلك الوظائف بما يلي:

١- الوظيفة التعبيرية: تسمى أيضًا الوظيفة الانفعالية، وينتجها المرسل، وتعبِّر عن شخصيته في الكلام.

٢- الوظيفة الندائية: تتعلق بالمرسَل إليه، الذي يُطلَب إليه بها القيام بعمل معيَّن. وهذه الوظيفة تقابل في العربية الأسلوب الإنشائي.

٣- الوظيفة المرجعية: تدور هذه الوظيفة حول السياق، وتعبِّر عن الغرض الذي من أجله صيغت الرسالة، وهي ذات طبيعة إخبارية لأنها تحيلنا على أفكار ومواقف نتحدَّث عنها، كالأمور الدينية والاجتماعية والفلسفية والتاريخية وغير ذلك.

٤- الوظيفة الانتباهية: وهي تركِّز على استمرار التواصل وجودته بين المرسِل والمرسَل إليه، في أثناء التخاطب.

٥- وظيفة تعدِّي الخطاب (ضمان الفهم): وهي تتعلق بكل ما يساعد على فهم اللغة المستعملة ذاتها، وكل ما يساعد على توضيحها، ليتأكد لِطرفَيْ الخطاب أن التفاهم حاصل.

٦- الوظيفة الشعرية: والمقصود بها ما يحمله الخطاب من عناصر التأثير في وجدان المرسَل إليه. وتسمَّى الإنشائية.

وهذه الوظائف التي حدَّدها ياكبسون تعدّ مدخلاً هامًّا لتحليل بنية النص وآفاقه الدلالية.

٣- المدرسة النسقية بكوبنهاغن:

أُسِّست هذه المدرسة في كوبنهاغن على يد عالَمَين هما:

أوتو يسبرسن (Otto Jespersen) وهولدر بدرسن (Holder Pedersen) في عام ١٩٣١، وكان من المؤسسين أولدال وبروندال.

وأشهر أعلامها: لويس يلمسلف (Louis Yhelmslev) الذي تبلورت أفكار هذه المدرسة على يديه.

يرى أتباع هذه المدرسة أن اللغة ليست مادة، كما يرى دي سوسير، وإنما هي شكل يخضع لنسق من العلاقات الداخلية، التي يمكن دراستها بنوع من المعادلات الجبرية.

فاللغة إذن في منظور هذه المدرسة تركيبٌ رياضي يُعبَّر عنها بالمعادلات، ولا أهمية تذكر للنواحي الصوتية والدلالية.

فهذه المدرسة تهتم بالاتجاه البنيوي الذي بدأته مدرسة براغ، إضافة إلى اهتمامها بالنسق أو نظام العلاقات الذي أولاه دي سوسير أهمية كبيرة.

٤ - المدرسة الاجتماعية أو السياقية بلندن:

بدأت بوادر هذه المدرسة بالظهور في بريطانيا في القرن السادس عشر، الذي شهد ازدهارًا في الجوانب المختلفة للسانيات العملية، التي تضم علم التلفُّظ وإصلاح التهجئة وعلم المعاجم وعلم اللهجات، وفي هذه المدرسة اختُرع نظام الاختزال، وابتُكِرتْ لغة عالمية.

وأهم أعلام هذه المدرسة: دالغارنو (Dalgarno) وويلكنز (Wilkins) ومالفيل بيل (Melvile Bell) وجراهام بيل (Graham Bell) وهنري سويت (HenrySweet) ودانيال جونز (Daniel Jones) وفيرث (Firth) .

تهتم هذه المدرسة بدراسة الصوتيات الوظيفية، أي الأداء الصوتي الذي يخدم المعنى كالنبر والتنغيم وغير ذلك، كما تركِّز اهتمامها على الدلالة باعتبارها الغرض الأساسي الذي من أجله صيغ الكلام.

وهذه المدرسة تنظر إلى اللغة باعتبارها شكلاً من أشكال الحياة الإنسانية، لذلك ترى أن الكلمات لا تدلّ على شيء في ذاتها، وإنما تكمن حقيقتها وقيمتها في السياق الذي ترد فيه.

والسياق ليس أمرًا لغويًّا فحسب، بل هو مجموعة الظروف الطبيعية والاجتماعية والثقافية والنفسية التي يكتسب منها الخطاب دلالته النهائية.

ويمكن تفسير مبادئ هذه المدرسة بما عُرف عند العرب بالمقال والمقام. فالعناصر الصوتية والصرفية والتركيبية توازي ما يسميه العرب المقال، والظروف المحيطة الطبيعية والاجتماعية والثقافية والنفسية تقابل ما يسميه العرب المقام، ولا يمكن فهم المقال دون استيعاب المقام الذي يحيط به.

وأتباع هذه المدرسة يدرسون كل العناصر السابقة باعتبارها عناصر مكونة للسياق العام، وفي ضوء ذلك يحدِّدون أربعة مستويات للسياق هي:

أ- السياق اللغوي: ويرتبط بنظام اللغة وكلماتها وترتيباتها المختلفة. وهو حصيلة استعمال الكلمة داخل نظام الجملة، وما يؤديه ذلك من دور في تحديد الدلالة.

ب- السياق العاطفي: ويُراد به تحديد الشحنة الانفعالية التي تحملها الكلمات. فالكلمة في منظور هذه المدرسة لا تحمل معنًى عقليًّا فقط، بل فيها أيضًا ألوان من الإحساس كما في الكلمات «دموع، حبيب، ذكرى».

ج- سياق الموقف: ويُقصَد به العلاقات الزمانية والمكانية التي يجري فيها الكلام، أي مجموعة الظروف الخارجية التي تؤثِّر في معنى النص ودلالته.

د- السياق الثقافي: ويُراد به ملاحظة الانتماءات الثقافية والتخصّصات العلمية لأصحاب الخطاب، فمثلاً حين يستعمل دارسو العربية كلمة «الصرف» يقصدون العلم المعروف الذي تُعرَف به أحوال الكَلِم. وحين تُستعمل هذه الكلمة في الوسط التجاري والمالي فالمقصود بها تحويل العملة إلى بضاعة، أو التحويل من نقد إلى آخر.

٥- المدرسة التحويلية التوليدية:

نشأت هذه المدرسة في الولايات المتحدة على يد اللساني الشهير نوام تشومسكي (Noam Chomsky) الذي تأثر كغيره من اللسانيين بدي سوسير، والذي ارتبطت اللسانيات باسمه في النصف الثاني من القرن العشرين، كما ارتبطت باسم دي سوسير في النصف الأول من ذات القرن.

وهذه المدرسة سبقتها مدرسة بلومفيلد (Bloomfield) التي ترى أن اللغة قائمة على الدوافع وردود الأفعال، أي إن اللغة سلوك بشري محكومة بالعلاقة السلوكية المشهورة (مُنبِّه --- يؤدي إلى ---- ردّ فعل).

أما تشومسكي فيرى أن المادة اللسانية وسيلة لمعرفة كيفية عمل العقل البشري، وأداة لدراسة الفكر الإنساني، لذلك دعا إلى دراسة القضايا اللسانية باعتبارها المسؤولة عن تغذية العقل البشري بالمعلومات.

وأهم ما تميز به تشومسكي أنه سعى إلى بناء نظرية عامة للغة. وهذه النظرية تقوم على مبدأ «لا نهائية اللغة» أي مبدأ: كيف تُنتج اللغة جُمَلاً لا حدَّ لها من عناصر لغوية محدودة؟

وأهم عناصر نظريته:

١- **الكفاية اللغوية**: وهي القدرة التي يتمكن الفرد عن طريقها من التعبير والإتيان بعدد لا متناهٍ من الجمل الجديدة في المناسبات المختلفة. وهذه القدرة فطرية وتتسع بفضل الاكتساب من البيئة المحيطة. والكفاية اللغوية تُشبه الملكة اللغوية عند ابن خلدون.

٢- **الأداء الكلامي**: وهو القدرة على التواصل وتوليد الكلام وفق النظام النحوي، أي هو القدرة على توظيف الكفاية اللغوية في توليد الكلام.

٣- **البنية السطحية والبنية العميقة**: يرى تشومسكي أن لكل تركيب شكلاً ظاهريًّا وبنية عميقة. فالبنية السطحية عنده هي: نظام الجملة القائم على تتابع الكلمات التي ينطقها المتكلم، أما البنية العميقة فهي: القواعد التي أوجدت التتابع في البنية السطحية. وهذه ترتبط بالكفاية اللغوية.

لقد أفادت اللسانيات التحويلية التوليدية تعليم اللغات الإنسانية المختلفة، وخاصة الإنكليزية، إضافة إلى إفادتها مناهج التعليم ووضع البرامج.

* * * * *

كان ما سبق عرضًا لمحتوى كتاب **المدارس اللسانية للدكتور أحمد عزوز**، الذي طبع في دار آل الرضوان بمدينة وهران الجزائرية عام ٢٠٠٨.

❁ ❁ ❁ ❁ ❁